

## مقدمة: ما الذي يجعل 'مسألة الحد الفاصل' أمرا مهما

ترجمة: د. عقيل بن حامد الزماي<sup>1</sup>

ماسيمو بيغلوتش ومارتن بودري

لقد كان الفلاسفة، منذ أيام سقراط، مشغولين بأسئلة من نوع "ما هو 'س'؟". ولم يكن المقصود دائما هو الكشف عن ماهية 'س' فعلا، وإنما استكشاف كيف نفكر بـ'س'، واستجلاء المظاهر المتعلقة بطرق تفكيرنا الخاطئة حياله، بأمل أن تؤدي هذه العملية إلى فهم أفضل على نحو متزايد للموضوع المطروح. ولقد قام أحد أكثر الفلاسفة طموحا كارل بوبر بطرح هذا السؤال نفسه، في وقت مبكر من القرن العشرين، في حالة خاصة يكون فيها س = العلم. وقد أطلق بوبر على هذا السؤال مصطلح 'مسألة الحد الفاصل'، أي السعي في طلب ما يميز 'العلم' عن 'غير العلم'، وعن 'العلم الزائف' (وربما ما يميز الأمرين الأخيرين عن بعضهما أيضا).

وكما تشرح الفصول الأولى من هذا الكتاب، فقد ظن بوبر أنه تمكن من حل مسألة الحد الفاصل عن طريق ضابط 'القابلية للدحض'، وهو حل كان يبدو مقنعا جدا حينما قارن نظرية النسبية العامة القابلة للدحض بلا نزاع، بنظرية التحليل النفسي (سواء الفرويدية أو غيرها) غير القابلة للدحض تماما. ولكن الفلاسفة المحدثين - الذين أصبحوا أكثر تحفظا بسبب انتشار الاستحسان للقضايا التي أثارها كل من بيير دوهم وويلارد كواين في هذا السياق - أصبحوا يعتقدون أن بوبر كان متعجلا قليلا في إعلان الانتصار. وبدأوا يدركون أن العلم ليس نشاطا ذا نوع موحد، وأن المشهد المتغير بشكل مستمر قد يؤدي إلى اقترانه ببعض المساعي غير العلمية.

---

<sup>1</sup> أشكر الصديق الدكتور عبدالمحسن الثبيتي لتفضله بقراءة الترجمة ومراجعتها، وعلى ما أبداه من ملاحظات واستدراكات مفيدة، وأود أن أنوه بأن هذه المقدمة تحتوي على الكثير المصطلحات التي تحتاج إلى شرح وتوضيح، ولكنني اخترت إرجاء ذلك إلى مواضع ورودها في فصول الكتاب (الترجم).

ومع ذلك، فإن المساهمين في هذا الكتاب يعتقدون أيضا أن استبعاد لاري لودان الشهير لمسألة الحد الفاصل – منذ ما يقارب ثلاثة عقود مضت – بوصفها مشكلة قائمة على سوء تصور، بل ومشكلة زائفة ومضرة، وأن استبعاده للمصطلحات من قبيل 'العلم الزائف' باعتبارها جزءا من خطاب منمق أجوف، لم يكن إلا حكما خاطئا وغير ناضج. وقد يكون لودان نسي درس سقراط: فحتى لو لم نتوصل إلى تعريف صوري دقيق، ولا يقبل الاستثناء لـ 'س'، بالاعتماد على مجموعة قليلة من الشروط الضرورية والكافية معا، إلا أننا سنتوصل إلى تعلم الكثير أثناء سعينا لذلك. إننا إذا رفعنا مطالبنا بالنسبة إلى الحد الفاصل عاليا، ولم نقنع بشيء أقل من تعريف جوهري وسرمدي، فإنه من السهل جدا إعلان موت هذه المسألة كما فعل لودان. وكما قال دانييل دنيت (Dennett, 1995) في كتابه 'فكرة داروين الخطرة: التطور ومعاني الحياة'، "لا يوجد شيء معقد بشكل كاف إلى درجة يكون معها جديرا فعلا بالاهتمام ويكون له جوهر".

إن العلماء والفلاسفة يستطيعون التعرف على 'العلم الزائف' بسهولة حينما يرونه. وبالطبع، فهناك بعض الحالات الخلافية المثيرة للاهتمام التي يكثر حولها الجدل بين العلماء والفلاسفة، ولكن حتى توماس كون الناقد الأشهر لبوبر يقر أنه رغم الاختلافات الفلسفية بينهما حيال مسألة الحد الفاصل، إلا أنهما على اتفاق تام بشأن الحالات النموذجية، كما هو حال معظم زملائهما. والادعاء بأن الفلاسفة ليس بمقدورهم توضيح الضوابط التي نعتمد عليها ضمنا من أجل التمييز بين العلم والعلم الزائف، وأنهم ليسوا قادرين كذلك على تقييم تلك المعايير وزيادة صقلها، إنما يعني التخلي عن واحدة من المهام الأساسية في الفلسفة: (ما المعرفة؟ وكيف نتوصل إليها؟). إن الفلاسفة لم يمعنوا لوقت طويل في المشاكل التقنية والاستثناءات للضوابط الصورية لمسألة الحد الفاصل، فقط من أجل أن نستنتج بدون روية أن مسألة الحد الفاصل قد ماتت وأنه لا يوجد شيء من قبيل 'العلم الزائف'. إننا نعتقد أن هذا بجانب للصواب.

إن هذا الكتاب يشهد بوجود نقاش مفعم وبنّاء حول الحد الفاصل بين الفلاسفة، وعلماء الاجتماع، والمؤرخين، والمتشككين من المهنيين. وإننا هنا باقتراحنا تخصصا فرعيا جديدا في الفلسفة، وهو 'فلسفة العلم الزائف'، نأمل أن نقنع أولئك الذي تابعوا خطى لودان بأن 'العلم الزائف' يُفَرِّز شيئا حقيقيا يستحق منا الاهتمام. وليس صعبا أن نتوصل للترسيم التقريبي للعلم الزائف - مع أنه سيبقى هناك الكثير من الفراغات التي يتعين ملؤها - ، فإذا كان هناك نظرية ما تحيد بمقدار كبير جدا عن المآرب المعرفية، مع إصرار مؤيديها على ترويجها بوصفها علما، فإنه يمكن بشكل مبرر حينئذ وسمها بـ'العلم الزائف'.

إن طبيعة العلم والفرق بينه وبين 'العلم الزائف' موضوعان ضروريان بالنسبة لفلاسفة العلم ومؤرخيه، والمشتغلين في اجتماعيات العلم لسببين أساسيين. أولهما أن العلم أصبح له تأثير متزايد في المجتمع الحديث. فالعلم يحظى بالكثير من الاهتمام والحظوة لدى العموم، ويتم تمويله على مستويات عالية جدا من قبل الحكومات والقطاع الخاص، وأقسامه في الجامعات تأخذ مساحات وموارد متزايدة، ومنتوجاته يمكن أن تكون مفيدة جدا لرفاهية الإنسانية أو أن تجلب معها دمارا واسعا على نطاق لم يسبق له مثيل. ولذا فإنه من المصالح الملحة بالنسبة لنا جميعا أن نفهم طبيعة العلم، وأسس المعرفة، وحدوده، وكذلك بنية السلطة فيه - وهذا هو بالضبط ما أنشئت لأجله التخصصات المتعلقة بفلسفة العلم، وتاريخه، واجتماعياته.

ثانيا وبشكل متمم لما سبق، فإننا نحتاج فهما فلسفيا (وتاريخيا واجتماعيا) لظاهرة العلم الزائف. إن عدم الاهتمام بالعلم الزائف في بعض الأوساط الفلسفية مستمد من افتراض مضمّر بأن بعض النظريات والأفكار خاطئة بشكل واضح جدا لدرجة أنها لا تستحق أي جدل بشأنها. وكذلك فإن العلم الزائف في كثير من الأحيان لا يزال يعد مجرد هواية غير مؤذية يتمادى فيها عدد محدود نسبيا من البشر الذين لديهم ولع غير عادي بأحاجي التنسك والعبادة. وهذا بعيد جدا عن الحقيقة. فالعلم الزائف في شكل الخلقانية وتحدياتها لدراسة التطور أحدث الكثير من الضرر في التعليم العام في الولايات المتحدة وغيرها، وأدى كذلك إلى الاحتيال على الناس وسلبهم مليارات الدولارات عن طريق الطب

'البديل' مثل 'المعالجة المثلية'، كما تسبب بالكثير من الاضطرابات العاطفية لأناس تم إخبارهم، على سبيل المثال، من قبل المتصوفة وفئات متنوعة من المشعوذين أنه بإمكانهم التحدث مع موتاهم المحبوبين. وقد أدت نظريات المؤامرة بشأن الإيدز - التي تنتشر في كثير من الدول الأفريقية، وحتى في الولايات المتحدة - حرفيا إلى قتل عدد لا يحصى من البشر في جميع أنحاء العالم. وحالة الإنكار بشأن التغير المناخي - التي يبدو أنه من المتعذر استئصالها في الدوائر السياسية المحافظة - قد تسبب في إحداث كارثة عالمية. ولا تزال هناك العديد من الطوائف والمذاهب الخطيرة، المبنية على نظم عقديّة من العلم الزائف، مثل العلمولوجيا التي تواصل اجتذاب العديد من الأتباع وتعيث في حياة الناس فسادا. وحتى لو غضضنا الطرف عن العواقب الوخيمة للعلم الزائف، فإننا يجب أن نتوقف للنظر في الموارد الفكرية الهائلة التي يتم إهدارها في تدعيم نظريات غير موثوقة مثل الخلقانية، والمعالجة المثلية، والتحليل النفسي، ناهيك عن السعي الدائم من أجل العثور على شواهد للخوارق، والنشاط الذي لا يعرف الكلل لمنظري المؤامرة.

إن العلم الزائف يمكن أن يسبب الكثير من المتاعب، وذلك يعود جزئيا إلى أن العامة لا يستطيعون إدراك الفرق بين العلم الحقيقي والأشياء الأخرى التي تتكرر في زي العلم. ويبدو أن أصحاب العلم الزائف يستطيعون الظفر باستمالة المتحولين إلى صفهم بسبب تركيبة معينة تمزج بين تقليد العلم والارتياح في السلطات الأكاديمية، وكل منهما يبدو أنه مغر جدا لعدد كبير من الناس. ومن ناحية أخرى، يبدو أن العلم الزائف يزدهر لأنه لم يتأت لنا حتى الآن القبض التام على الجذور الإدراكية والاجتماعية والمعرفية لهذه الظاهرة. وهذا هو الذي يجعل مسألة الحد الفاصل ليست مجرد أحجية فكرية مثيرة للفلاسفة ونحوهم من الباحثين، ولكنها أحد الأمور التي تجعل الفلسفة ذات صلة وثيقة جدا بالمجتمع. وتبعاً لذلك، فإن الفلاسفة ليس لديهم واجب بحثي مجرد في هذا المجال، بل واجبات اجتماعية وأخلاقية كذلك. ومن أجل هذه الأسباب كلها، طلبنا من بعض أكثر المفكرين أصالة وشهرة في موضوع العلم والعلم الزائف المساهمة في هذا الكتاب المحرر. وكانت النتيجة عبارة عن مجموعة

من أربع وعشرين مقالة، قسمت إلى ستة أقسام من الموضوعات، من أجل إضفاء نوع من التنظيم على هذا الميدان الواسع والمعقد وذوي التخصصات المتعددة بطبيعته.

في القسم الأول 'المشكل في مسألة الحد الفاصل'، يقدم ماسيمو بيغلوتشي [في الفصل الأول] تقييما مفصلا لاعتراضات لودان على برنامج البحث المتعلق بهذه المسألة، ويواصل لتقديم مقترح يستند إلى صيغة قابلة للقياس من مفهوم 'التشابه الأسري' لدى فيجنشتاين. وعلى نحو مماثل، يقترح مارتن ماهنر [في الفصل الثاني] مقارنة تقوم على مفهوم 'اللّمة' في تناول الحد الفاصل، مستوحيا ذلك من تصنيف أنواع الأحياء، الذي لا يخضع كذلك لتعريفات جوهرانية. وأما جيمس ليديمان [في الفصل الثالث] فيستخدم تحليل هاري فرانكفورت الشهير ل'الهراء' من أجل تسليط الضوء على الفرق بين 'العلم الزائف' والتدليس العلمي المباشر. ويقوم سيفن هانسون [في الفصل الرابع] كذلك بإعادة صياغة 'مسألة الحد الفاصل' من منطلق التبرير المعرفي، ويقترح مقارنة تعتبر أن العلم موحد على المستوى المعرفي، ومع ذلك تمكننا من تفسير ما فيه من تنوع في المنهجيات. وأما مارتن بودري [في الفصل الخامس] فيحاول أن يزيل بعض اللبس بين ما يسميه 'الحد الفاصل الصميم' (الحدود بين العلم والعلم الزائف)، و'الحد الفاصل الجانبي' بين العلم والحقول المعرفية الأخرى (الفلسفة والرياضيات).

وأما القسم الثاني فيتعامل مع تاريخ العلم الزائف والاجتماعيات المتعلقة به. فيبدأ النقاش بتوماس نيكلس [في الفصل السادس] الذي يقدم لمحة موجزة ولكنها شاملة لتاريخ مسألة الحد الفاصل، وذلك يقودنا ل[الفصل السابع الذي يتضمن] تحليل دانيال ثورس ورونالد نمبرز التاريخي للعلم الزائف، الذي يقوم بتتبع المسائل المتعلقة باستحداث المصطلح وتداوله، ويشرح معناه المتحول جنبا إلى جنب مع الهوية التاريخية المتشكلة للعلم. وفي حين أننا نسعى إلى الابتعاد بشكل مقصود عن علم الاجتماع المستوحى من التشييدية الاجتماعية، وما بعد الحداثة - والتي نعتبرها بحد ذاتها نوعا من التخصصات الزائفة -، إلا أن عالم الاجتماع إريك غوود يقدم [في الفصل الثامن] تحليلا للخوارقية باعتبارها "تخصصا

شاذاً، يخالف التوافق المعمول به في العلم الراسخ. وأما نوريتا كويرتج [في الفصل التاسع] فتلفت انتباهنا إلى صفة التنظيم الاجتماعي للعلم الزائف كوسيلة لتسليط الضوء على البعد الاجتماعي للمسعى العلمي.

وأما القسم الثالث فيستكشف التخوم التي تمثل مناطق الحدود بين العلم والعلم الزائف. فتستخدم كارول كليلاند وشيرالي براندل [في الفصل العاشر] فكرة السببية اللامتناهية في الاستدلال الإثباتي للتخالف بين ما يشار إليه أحيانا بالعلوم 'الصلبة' و'الرخوة'، ويذهبان إلى أن التصورات الخاطئة حول هذا الاختلاف تفسر ارتفاع منسوب العلم الزائف ومعارضة العلم في العلوم غير التجريبية. وأما مايكل شيرمر [في الفصل الحادي عشر] فينظر في الجوانب الديموغرافية للعقائد المرتبطة بالعلم الزائف ويدرس كيف يتم التعامل مع مسألة الحد الفاصل في القضايا القانونية. وعبر منعطف مدهش، يخبرنا مايكل روسي [في الفصل الثاني عشر] عن الوقت الذي كان يتم التعامل فيه مع فكرة التطور على أنها علم زائف، ثم علم دارج، قبل أن تُزهر في العلم المهني أو الاحترافي، فيتحدى بذلك تصور الحد الفاصل الذي ينطلق من مبادئ أبدية وصورية خالصة.

وأما القسم الرابع، حول العلم والغيبيات فوق-الطبيعية، فيبدأ [في الفصل الثالث عشر] باحتجاج إيفان فاليس - بما يخالف بعض الآراء الفلسفية الأخيرة - بأن اللجوء إلى الغيبيات فوق-الطبيعية لا ينبغي أن يستبعد من مجال العلم لأسباب منهجية فقط، بل لأن فكرة التدخل الغيبي الخارق تعاني غالباً من عيوب مدمرة. وفي الوقت نفسه، تستدعي باربرا فورست [في الفصل الرابع عشر] ديفيد هيوم لاجتياز الأراضي المخاتلة بين العلم والعلم الزائف المتدين من أجل تقييم مستند الغيبيات فوق-الطبيعية.

وأما الجزء الخامس فيركز على التكتيكات التي يستخدمها 'المؤمنون الحقيقيون' بالعلم الزائف، ويبدأ [في الفصل الخامس عشر] بنقاش جين بول فان بنديجم لأخلاقيات الحجاج في العلم الزائف، يلي ذلك [في الفصل السادس عشر] احتجاج جيسر جيركيرت بأن الطب البديل يمكن تقييمه علمياً - بخلاف استراتيجيات التحصين التي يستخدمها بعض مؤيديه

الأكثر صحبا. وأما فرانك تشوفي، الذي نعى وفاته عام ٢٠١٣، فيلخص [في الفصل السابع عشر] شكوكه حول التحليل النفسي الفرويدي، ويحتج بأن علينا أن نتجاوز التقييمات المتعلقة بالقابلية للاختبار والخصائص المنطقية الأخرى للنظريات، ونركز بدلا من ذلك على ادعاءات التثبت المختلفة، والمخالفات الأخرى المتكررة من قبل أصحاب العلم الزائف. ويصف دونالد بروثيرو [في الفصل الثامن عشر] الاستراتيجيات التي يستخدمها "المتشككون" في التغير المناخي وغيرهم من المنكرين، ملخصا الصلات ما بين 'التقليديين' والجدد من أتباع العلم المزيف.

ونختم أخيرا بقسم يتفحص الجذور الإدراكية المعقدة للعلم الزائف. فيتساءل ستيفان بلانكي وجوهان دي سميدت [في الفصل التاسع عشر] عما إذا كنا فعلا نتطور لنكون غير عقلانيين، ويصفان عددا من موجّهات التطور التي تكون عقلانية في المجالات ذات العلاقة ببيئتها الخاصة، ولكنها تقودنا إلى الضلال في سياقات أخرى. ويستكشف كونراد تالمونت-كامنسكي [في الفصل العشرين] الوظائف غير الإدراكية للمعتقدات غير الاختبارية ويحلل المواقف المختلفة للعلم والعلم الزائف من المعتقدات البديهية. ويفرّق جون ويلكنز [في الفصل الحادي والعشرين] بين نمطين ذهنيين حيال العلم ويستكشف الأساليب الإدراكية المتعلقة بالسلطة والتقاليد في كل من العلم والعلم الزائف. ويقترح نيكولاس شاكيل [في الفصل الثاني والعشرين] أن الإيمان بالعلم الزائف ربما يمكن تفسيره جزئيا عن طريق الخصوصيات النظرية لأخلاقيات الإيمان، ويختتم فيليب ديوكنز [في الفصل الثالث والعشرين] الكتاب بفصل عن الهيرمونيطيقا الزائفة ووهم الفهم، مستندا على علم النفس المعرفي وفلسفة التفكير القصدي.

إن هذه المجموعة بكل تأكيد لا يمكن أن تمثل الكلمة النهائية في مسألة الحد الفاصل. بل إن المقصود منها، على النقيض من ذلك، هو إعادة النقاش وتحفيزه في أحد مجالات فلسفة العلم المثيرة للاهتمام بحد ذاتها من الناحية الفكرية، والتي يمكن أن تجعل الفلسفة ذات صلة مباشرة بحياة الناس.

